الفصل الرابع عشر

❖ ❖ ❖

التحليل النفسي لـ «قابيل»: ثلاث وجهات نظر

عندما شرعنا بالتحضير لكتابة هذا الكتاب، كنا نريد التركيز على «العالم الحقيقي» الذي يحكمه التنافس الحاد، وتجنب الخوض في النظريات السيكولوجية حول السلوك الشخصي للإنسان. لكن أحد المحامين الذين قابلناهم أثار فضولنا. وقد أخبرنا هذا المحامي الذي كان يعتبر نفسه صورة صادقة عن هابيل بأن المتاعب التي صادفته في تعامله لسنوات عدة مع أمثال قابيل دفعت به لاستشارة عالم نفس. ويبدو أن ذلك أعانه إلى حد بعيد في تعامله مع قابيل وأشباهه.

وقد سأل المحامي طبيبه النفسي عما إذا كان على استعداد لشرح شخصية قابيل وتوضيح معالم هذه الشخصية لنا. وقد وافق على التحدث معنا. وتبين لنا من خلال حديثه بأن شخصية قابيل بالنسبة له حقيقة واقعة.

وقد اجتمعنا أيضاً بصديق لنا يمارس التحليل النفسي للسلوك البشري، رغبة منا في أخذ رأي أخصائي آخر من منطلق تحليلي مختلف، وعلى الرغم من أنه عالج الموضوع من وجهة نظر أخرى، فقد أكد هو الآخر على وجود قابيل وأشباهه في الحياة العملية.

وأخيراً اتصلنا بـ السيدة نورين جونسون رئيسة الجمعية الأمريكية لعلماء النفس American Psychological Association، التي أثار فضولها مادة الكتاب، و نصحتنا باستشارة أحد علماء النفس لعله يفيدنا في هذا المجال، لا سيما وأنه متخصص بالجانب النفسي في حوادث الطلاق الصعبة التي تواكبها ظروف مريرة. وهكذا استطعنا أن نستقي منه رؤية ثالثة.

من الواضح أنه كان بإمكاننا أن نقابل أخصائيين آخرين إلى ما لا نهاية، لكننا لسنا معنيين بكتابة بحث حول المدارس المختلفة في علم النفس الحديث. إن غرضنا الأساسي هو توجيه نصائح وإرشادات حول الكشف المبكر عن قابيل وأمثاله والتصدي لهم. وعلى كل حال فقد قررنا أن نضيف إلى الكتاب الإفادات التي حصلنا عليها من الأخصائيين الثلاثة بعد وضعها في سياقها الصحيح. كما أننا تجنبنا ذكر أسماء أولئك الأخصائيين لسببين: أولاً، لأننا لا نريد الإيحاء بأنهم يمثلون الآراء السائدة في مهنتهم. وثانياً، للحفاظ على سرية العلاقة بين المريض والأخصائي الذي يعالجه.

رأي علم النفس

إن السلوك الملتوي لبعض بني البشر يمثل أحد طرفي الطيف الذي يمثل مجمل أنماط السلوك البشري. وسلوك قابيل يقع على مقربة من هذا الطرف.

ثمة نسبة مئوية عالية من أشباه قابيل تعاني من حالات مرضية بصورة أو بأخرى، فالبعض يعاني من النرجسية(عشق الذات) والبعض الآخر معادٍ للمجتمع بطبعه Antisocial.

والنرجسيون منهم يشعرون بحاجة ماسة إلى نيل إعجاب الآخرين، وإحاطة أنفسهم بهالة من مظاهر السلطة والنفوذ حتى وإن كان مركزهم لا يبرر ذلك. أما النموذج الآخر المعادي للمجتمع، فيميل إلى استغلال الآخرين لتحقيق مآربه دون الالتفات إلى أية اعتبارات أخلاقية أو إنسانية، أو أي شعور بالذنب، ويعتبر أن سلوكه مشروعاً، وأن العالم كله ينحو هذا المنحى.

والواقع أن هذه الأنماط السلوكية أو بعضها موجودة في كلا النموذجين، بيد أن المعادي للمجتمع يسبب متاعب أكثر من النموذج النرجسي، من حيث أنه يمكن أن يكون شخصية جذابة، كثيراً ما ينخدع بها الآخرون. لكن «شطارتهم» أحياناً تفسد خططهم وكثيراً ما يجدون أنفسهم في مواجهة مع العدالة. وقابيل يمتلك هذه الصفات بدرجة أقل، ويستخدمها كوسائل لتحقيق ما يصبو إليه.

إن العديد من الشخصيات البارزة في المجتمع، ولا سيما رجال السياسة منهم، يتصفون بهذه الصفات إلى حد ما. ولكي تكون سياسياً ناجحاً لا بد وأن تكون واعياً للصورة التي تظهر بها أمام الجمهور، وأن تكون معتداً بنفسك إلى حد يفوق الحد الطبيعي. وهذا من العوامل التي تجعل السياسي قادراً على تجاوز الفضائح.

إن العديد من كبار رجال الأعمال يتمتعون بهذه الصفات، وهذا ينسحب على أي شخص يتمتع بسلطة وصلاحيات واسعة أياً كانت مهنته. وهؤلاء الأفراد يحالفهم النجاح لأنهم دهاة وماهرون بالإضافة إلى أنهم يتسمون بالكثير من سمات قابيل لكن هذه السمات تبقى تحت سيطرتهم ولا ترقى إلى مصاف الحالة المرضية.

سبق وذكرنا أن أغلب الناس أشبه بـ «هابيل» في طبائعهم، مما يجعلنا نميل إلى وصفهم بالسذاجة وحسن النية وعدم إساءة الظن بالآخرين.. إلى أن يثبت العكس. لكن وصفهم بالسذاجة ليس دقيقاً. وذلك لأن الشخص الذي ينظر إلى الحياة بصورة إيجابية، يميل إلى اعتبار الآخرين مثله، وبالتالي لن يسيء الظن بهم، وهذا بطبيعة الحال يجعلهم عرضة للاستغلال من أشباه قابيل الذين يعرفون كيف يشبعون غرور الناس ويتقنون فن التملُّق.

إننا نتكلم هنا عن أناس في منتهى الكياسة. ويعرفون تماماً ما يحب الطرف الآخر أن يرى ويسمع، لذلك يقومون بإشباع هذه الرغبة بصورة تكاد تكون عفوية، سواء كانت هذه الصورة صادقة أم متكلفة. والواقع أن الصدق

في القول والعمل لا يعنيهم إلى درجة أنهم لا يعون الأذى الذي يسببونه؛ كما أنهم لا يقيمون وزناً لمصير غيرهم، ولا يلتفتون إلا لأنفسهم ومصالحهم حصراً، اللهم إلا إذا دفعتهم الحاجة للتقرب من هذا الفرد أو ذاك لتحقيق مآربهم. هذا هو العالم كما يراه قابيل من منظوره.

هناك من يقول بأن أشباه قابيل ليسوا سوى نتاجاً طبيعياً لثقافتنا المعاصرة التي تقوم على الربح المادي وتكديس الثروات والممتلكات، وبالتالي تشجع مثل هذا السلوك. قد يكون هذا الرأي صحيحاً ولكني لست متأكداً إلى أي حد يمكن الأخذ به. إذ أنني لا أعتقد بأنه قد حصل تبدل ملموس في الطباع البشرية. إن أية ثقافة تعزز أنماط سلوكية معينة وفقاً لطبيعة تلك الثقافة ومعطياتها.

وفي علاقاتنا الشخصية، ثمة مؤشرات قد تدل على أننا نتعامل مع أحد أشباه قابيل. وأحد هذه المؤشرات يتمثل في إحساسنا بأنه ثمة شيء مفقود في العلاقة، أو بأن الأحداث تسير وفقاً لمصلحة الشخص الآخر. وبعبارة أخرى؛ إذا انتابك شعور بعدم الارتياح وأحسست بأن شيئاً مشبوهاً يجري وراء الكواليس، فخذ حذرك.

إن كوني مختصاً بقضايا الطلاق، أتاح لي رصد العلاقة الشخصية التي تربط قابيل بـ «هابيل»، وطبيعة هذه العلاقة. وأود أن أؤكد بأن طباع قابيل غالباً ما تكون السبب الرئيسي في حوادث الطلاق.

إن الطلاق بالنسبة لقابيل وأشباهه، ليس سوى مباراة يفوز فيها من يفوز ويخسر من يخسر. إن الفوز من العوامل الهامة والحيوية في حياة هؤلاء. لذلك نجدهم يبذلون قصارى جهدهم لقهر الآخرين، مهما كلفهم الأمر وكثيراً ما تنجح مساعيهم. وعلى صعيد آخر، فإن عنادهم ومثابرتهم دون كلل تجعلهم يحققون مآربهم.

لقد شاهدت في العديد من حوادث الطلاق رجالاً من أمثال قابيل متزوجين من نساء فقدن كرامتهن أو أنهن خضعن لطغيان الزوج خلال

حياتهم الزوجية. في هذه الحالة تنهار معنويات الزوجة، وتبدي استعداداً أكثر مما ينبغي للتخلي عن حقوقها؛ لا شيء إلا للتحرر نهائياً من سلطة الزوج وهذه حالة شائعة. وبعض هؤلاء الأزواج أو النماذج عن قابيل، قادرون على المناورة والمراوغة إلى أن ينجح في إنهاك الطرف الآخر.

وهذه المشكلة غالباً ما نلاحظها في حوادث الطلاق التي لا يُبت فيها القضاء إلا بعد مدة طويلة. والضحايا في هذه الحالة هم هذه الفئة من النساء اللواتي تفتقرن إلى القدر الكافي من عزة النفس.

لذلك، إذا أحس أحد الزوجين بأنه أصبح تحت رحمة الآخر، فالأوْلى به أن يعيد النظر بدوره كزوج (أو زوجة)، ويحاول تقييم سلوكه ـ وإعادة تقييم علاقته الزوجية ـ بغية تقدير الضرر المعنوي الذي باتت هذه العلاقة تسببها له.

سبق وقلت بأن الطلاق بالنسبة لقابيل هو قضية «فوز» دون النظر إلى العواقب، ولكني يجب أن أضيف إلى ما قلت بأن هنالك عدة نماذج لـ «قابيل». هنالك قابيل الذي يمثل سلوكه حالة مرضية، والنموذج الآخر، الأكثر اعتدالاً، الذي يبدي تفهماً أكثر لمشاعر الطرف الآخر. في حين أن قابيل في أسوأ حالاته لا يصغي ولن يصغي لما يقوله الطرف الآخر، وقد يستشيط غضباً إذا وجه له أحدهم انتقاداً.

وهذا النموذج لـ «قابيل» أكثر خطورة من غيره. وثمة صعوبة في معالجة هذه الحالات المرضية التي تعتري السلوك الشخصي للفرد. وذلك لأن من يعاونون من مثل هذه الحالات لا يقرون، لا بل لا يشعرون بحاجتهم إلى العلاج. إني لا أقول باستحالة إنقاذ علاقة زوجية عندما يكون أحد الطرفين قابيل في أسوأ حالاته .

إن من أصعب القضايا من وجهة نظر المحامي هو عندما يكون قابيل أحد الخصمين في دعوى طلاق. وقد أخبرني أحد القضاة أن أصعب من تعامل معهم من الناس في غرفة المحكمة كانوا من الأفراد الناجحين

والمغرورين بأنفسهم، وبالتالي فهم يغالون في طلباتهم وفي ما يعتبرونه حقوقاً لهم.

يضع قابيل (وأمثاله) نفسه في المرتبة الأولى من حيث الأهمية ولا يفعل إلا ما يرضي غروره، رافضاً أية حلول توفيقيّة لأنه على قناعة بأن الطرف الآخر أي الزوجة لا تستحق شيئاً وأنها مدينة له بالكثير.

إن هذا النوع من الرجال لا يتزوج إلا المرأة التي يمكنه السيطرة عليها. وإذا تبين له أن المرأة التي تزوجها أقوى مما كان يتوقع، سعى إلى طلاقها. وقد يتملكه الغضب إذا أحس بأن زوجته لا تقدّر ما فعله من أجلها، أو على الأصح ما يتصور أنه فعله من أجلها.

وهذه الحالة المرضية تكمن جذورها في توقه إلى الشعور بالتفوق. لذلك يأخذ بمعاملة زوجته بتعجرف عندما يشعر بأنها بدأت تطالب بأشياء لم تكن تطالب بها من قبل. لكن هذه العجرفة قد تخفي وراءها شيئاً من الشعور بالمهانة. والحل بالنسبة له في هذه الحالة هو الطلاق والبحث عن رفيقة تشبع غروره.

ولكي نعالج شخصاً في مثل هذه الحالة لا بد من الكشف عن أحاسيسه ومشاعره الداخلية. لكن شخصاً مثل قابيل يعارض بشدة الكشف عن مشاعره ويفضل الهروب من الزواج أو استشارة طبيب نفسي، لأن ذلك يجبره على مواجهة حالته المرضية المتمثلة في الإعجاب المفرط بالذات أو ما يعرف بـ «النرجسية».

لا بد من الإشارة إلى أن هذه الحالات لا تقتصر على الرجال فقط، وتشير نشرة إحصائية لرابطة الأطباء النفسيين الأميركية إلى أن عدد الرجال الذين يعانون من خلل في الشخصية يتمثل في سلوك معادٍ للمجتمع، يكاد يساوي ثلاثة أضعاف أمثالهم من النساء.

قبل أن أختم أود أن أكرر القول بأن السلوك الشخصي للإنسان يشكل طيفاً متصلاً Continuum. وأنماط السلوك التي ذكرتها قد يصاحبها عناصر إيجابية تخفف من وطأة الجانب السلبي.

نلخص في ما يلي آراء علم النفس الواردة أعلاه:

- يوجد عدة أنماط من السلوك الشاذ. ومن هذه الأنماط: (1) النرجسية أو الإعجاب المفرط بالذات، و(2) الفرد المناوئ للمجتمع Sociopath، الذي لا ضمير له والذي يجنح إلى استغلال الآخرين لأغراضه الخاصة.
- يظهر هذان النمطان في شخصية قابيل إلى حد ما.
- يُتقن قابيل وأمثاله استخدام المظاهر والتملق لخداع الآخرين، ويتصرف بلباقة.
- يمثل «الفوز» الهدف الأسمى لـ «قابيل»، ويفعل ما بوسعه لقهر الآخرين. ونرى هذا السلوك بصورة واضحة في حوادث الطلاق حيث يسعى جاهداً للحصول على كل شيء ورفض الحلول الوسط.
- تتوق نفس قابيل إلى الإحساس بتفوقه على الآخرين، لأنه في قرارة نفسه يشعر بالنقص.

آراء أحد المحللين النفسيين (المدرسة السلوكية)

عندما أريد أن أفهم شخصاً ما، أبدأ بطرح السؤال التالي: «لماذا يتصرف هذا الشخص على هذا النحو؟».

ينطلق تحليل السلوك من القاعدة بأن أي سلوك لا يستمر إلا إذا توفرت العوامل التي تدعمه وتعززه. فعلى سبيل المثال، عندما يكذب المرء، فهو يكذب لغرض معين، وإذا تحقق هذا الغرض وترتب عليه مكافأة فهذا يعني بأن الكذبة كانت ناجحة وبالتالي مجزية.

إذن لكي يترسخ سلوك معين ويقوى لا بد من عوامل خارجية تنميه وترسخه تدريجياً.

كيف، وما هي العوامل التي تؤدي إلى تنمية وترسيخ هذا النمط من السلوك ـ ونقصد سلوك قابيل؛ لكي تفهم شخصاً ما، لا بد أولاً من معرفة تلك الأشياء التي تهمه والتي يسعى وراءها. مثل الثروة والجاه أو تقدير المجتمع أو استحسان الناس الذين يقدم لهم خدماته.

وبعض الناس يتوق إلى التقدير والثناء من قِبل زملائهم؛ تصور شخصاً لا يأبه لرأي الآخرين فيه، ولا يقيم وزناً لردود أفعال زملائه ونظرتهم إليه. إن مثل هذا الشخص لن يتورع عن الكذب والغش وحتى ارتكاب جريمة قتل للحصول على ما يريد، ولا يردعه عن ذلك إلا خوفه من الوقوع في يد العدالة وليس ضميره الاجتماعي. إن شخصاً كهذا قد يوقع بزميل له ويخسر صداقته إذا كان ذلك يضمن له تحقيق أمر هام بالنسبة له.

والواقع أنه ليس من السهل تفسير أو تحليل السلوك الفردي لأي كان، ذلك لأن أغلب الحوافز التي تكمن وراء سلوك معين، معقدة جداً. وبعض أنماط السلوك تؤدي إلى النتائج المرغوبة وبسرعة. وهناك أنماط أخرى تؤدي نتائج معينة على المدى البعيد بصرف النظر عما إذا كانت هذه النتائج حسنة أو سيئة.

هناك مقياس يُستخدم في ميدان التجارة هو مقياس بالمر؛ وهو عبارة عن مجموعة أسئلة يفترض أن تدل إجاباتك عنها، على جوانب معينة لشخصيتك. فمثلاً قد تكون من النوع الذي يفضل أن توكل إليه مهمة محددة، أو قد تكون من النوع الذي يفضل أن يشارك بعمل جماعي مستمر. وأياً كان الأمر فإن الأشياء الهامة بالنسبة لك تقرر سلوكك. وهذه الأشياء تختلف من شخص إلى آخر.

إن السلوك البشري بطبيعة الحال لا يمكن عزله عن محيطه. لماذا، مثلاً، يكذب بائع السيارات المستعملة على زبائنه؟ هل يكذب أيضاً في بيته؟ أو في مكان العبادة؟ أو على أصدقائه؟ ربما لا يكذب إلا عندما يمارس عمله، وذلك لأن النظام الذي يحكم عالم بيع السيارات المستعملة، يؤثر

على السلوك. وهذا النظام له قواعده التي تختلف عمّا هو معمول به في أنظمة اجتماعية أخرى. والسياسيون أيضاً يكذبون في مواقف معينة. وليس غريباً أن يكذب أحد القادة العالميين على مواطنيه متذرعاً بضرورات «الأمن القومي». إن كل فرد معرض لأن يفعل أشياء سيئة في ظروف معينة. ومن المعلوم أن أفراداً عاديين ومسالمين على استعداد لأن يقتلوا في حالات الحرب، والنظام الاجتماعي السائد يسمح بذلك.

كيف تسمح ظروف اجتماعية معينة، لا بل وتشجع، السلوك السيئ؟ لنعد إلى بائع السيارات المستعملة. إن طبيعة عمله تقوده إلى انتهاج سلوك غير قويم في تعامله مع الزبائن، والذي يشجعه على المضي في ذلك أن زملاءه في المهنة يعتمدون الأساليب نفسها، ويبررون استغباءهم للآخرين دون حياء.

من المعروف أن جماعات المافيا تشجع من ينتمون إليها على القيام بأعمال لا أخلاقية وتجد لها المبررات. كما أن بيئة العمل في هذه الحالة تشجع المجرم على المضي في ممارسة أنشطته الإجرامية، وكلما ابتعد عن هذه البيئة كلما قل هذا النشاط.

وكذلك الأمر بالنسبة لأولئك الذين يسوّقون السلع والخدمات عبر الهاتف Telemarketers. إن المطلوب من هؤلاء تصيّد الزبائن وإقناعهم بالشراء، ولا بأس إذا لجأوا إلى الكذب لتصريف سلعهم، لا سيما وأنهم يحصلون على مكافأة إذا نجحوا في مساعيهم. وهكذا تصبح المكافأة مرتبطة بانتهاج سلوك معين.

وهذه الطريقة لا تختلف عن الطريقة التي يستخدمها القَوَّاد في تحويل فتاة شابة إلى مومس. يبدأ أولاً باختيار فتاة أصغر وأقل خبرة منه بكثير، ثم يغمرها برعايته ويعزلها عن أصدقائها، وأخيراً يبني معها علاقة بحيث يسيطر عليها عن طريق تأمين احتياجاتها وتلبية رغباتها. وعندما يحين الوقت، يزجّ بها في أتون غاياته ومآربه، فيزين لها الحرام لقاء مبلغ من المال هو في أشد

الحاجة إليه، ويوهمها بأنها بذلك تؤدي خدمة بسيطة له. وبعد أن تنفذ ما يطلبه، يكيل لها الثناء، وهكذا يترسخ هذا السلوك، وتجد الفتاة نفسها أسيرةَ مصيدته. إني أعتقد أن كُلاً منا يمتلك أيضاً حرية الاختيار. إننا نعرف عادة عواقب خياراتنا، عموماً نختار ما يشبع رغباتنا الدفينة.

لا شك أن البيئة على صعيد البيت والمجتمع لها أثر كبير بالغ على سلوكنا. وتاريخنا كأفراد يقرر إلى حد كبير ما يحصل لنا الآن، وهذا يقودنا إلى السؤال الصعب التالي: هل يتقرر سلوكنا بفعل قوى خارجية؟ يقول بي. إف. سكيز في كتابه Beyond Freedon and Dignity ما معناه أن حرية الخيار حرية وهمية وأن البنية النفسية للفرد هي التي تقرر ما يختاره، أو بعبارة موجزة: نحن لا «نقرر» سلوكنا الشخصي، بل نفعل ذلك بصورة تكاد تكون تلقائية.

في القصة التاريخية حول قابيل وهابيل، يمكن القول بأن قابيل كان يتمتع بحرية الخيار في الوجهة الأخلاقية. والمعروف أن الله رفض قربان قابيل في حين قبل قربان هابيل، الأمر الذي ملأ قبل قابيل حسداً ودفعه إلى قتل شقيقه، علماً بأنه لم يكن مجبراً على ذلك. كان بإمكانه اختيار عدم اللجوء إلى القتل.

إني اعتقد أن كلامنا يمتلك أيضاً حرية الاختيار. إننا نعرف عادة عواقب خياراتنا، وعموماً نختار ما يشبعُ رغباتنا الدفينة.

بقي أن نجيب عن السؤال التالي: لماذا يتصرف بعض الناس ـ أمثال قابيل ـ بصورة بشعة؟ والجواب هو أن هذه التصرفات أدت وتؤدي إلى تحقيق أهداف قابيل، ومن المؤكد أنها تؤدي أيضاً إلى تشويه سمعته أمام المجتمع، لكن ذلك من الأمور التي لا يأبه لها.

إن العديد من المديرين الناجحين يمكن اعتبارهم نماذج عن قابيل، من حيث أنهم يركزون على تحقيق أهدافهم أو أهداف مؤسستهم دون أدنى

اهتمام بمصير الآخرين. أو بعبارة أخرى: ينفذون مهامهم حتى لو أضر ذلك بعائلاتهم أو بمن حولهم سواء كانوا موظفين أو أصدقاء.

كان هذا ولا يزال الأسلوب القديم في الإدارة. غير أنه يوجد أدلة الآن تشير إلى أن مديري الأعمال بدأوا يتحولون نحو إدارة أكثر إنسانية. ويبدو أن المديرين الأصغر سناً أصبحوا يلتفتون إلى الجوانب الإنسانية في تعاملهم مع موظفيهم، ويبتعدون عن التهديد باتخاذ إجراءات تأديبية كما كان يفعل أسلافهم. لقد أخذ المديرون الجدد يبرزون أكثر فأكثر بفضل توجههم نحو التركيز على أهمية التعاون بين مختلف العاملين. وقد يكون الأسلوب الجديد في الإدارة لا مفر منه، لا سيما عندما ينتمي العاملون إلى الشريحة المتعلمة أو الفئات المتخصصة أمثال المهندسين ومبرمجي الكمبيوتر الذين يستطيعون إيجاد عمل آخر إذا لم يشعروا بارتياح، ولا سيما عندما يكون الوضع الاقتصادي مزدهراً.

إن أسلوب الإدارة القائم على «العقاب» له ما يبرره وكذلك الأسلوب القائم على «الثواب». بيد أن تطبيق أحد هذين الأسلوبين بمفرده لا يكفل النجاح ـ هذا من وجهة نظر علم النفس السلوكي. ويبدو لي أن الأسلوب الوسط سيفرض نفسه في النهاية.

إن التنافس بين الأفراد أمر لا مفر منه. ولكن زيادة مدة التنافس في المجتمع الغربي يمكن أن يحول البعض إلى وحوش. إن التنافس من الصفات الأساسية لبني البشر، وهي إلى جانب ذلك هامة وضرورية لنمو وبقاء المجتمع، ولكنها بدأت تتحول إلى ظاهرة تؤذي الفرد والمجتمع.

خذ مثلاً تزاحم السيارات على الطرق ونقاط الخروج، فالكل يريد أن يسبق الآخر، لا سيما السائق (الموظف) الذي يرزح تحت ضغط العمل وعليه التقيد بجدول زمني في حياته اليومية. إن هذه المزاحمة وجهاً لوجه تؤدي إلى سلوك سلبي وعواقب سلبية.

إن مجتمعنا اليوم أكثر من معظم المجتمعات الأخرى يتسم بالتنافس الذي يُفترض أن يؤدي إلى صمود وبقاء الأصلح. وقد تكون المنافسة في مجتمعات أخرى أقل حدة. ربما لقلة الكثافة السكانية.

لا يوجد منافسة تذكر في المجتمعات البدائية. ولكن تعدد الاختصاصات عبر التاريخ، أدى إلى نشوء الطبقات الاجتماعية ومنها الطبقات الثرية، وهذا أدى بدوره إلى التنافس على تسلق السلم الاجتماعي.

إن المنافسة بين الأفراد والمؤسسات من طبيعة مجتمعنا الديمقراطي، وهذا شيء جيد. لكن الجانب السلبي يبرز عندما تخضع هذه المنافسة لقانون الغاب. أما إذا كان سلوكنا فيه نفع لنا وللآخرين، فهذا سيعود بالفائدة على المجتمع، حتى وإن كان هذا السلوك أساسه التنافس. بمعنى أنه من الممكن أن أسعى وراء مصلحتي الخاصة دون التخلي كلياً عن مسؤوليتي الاجتماعية، بالتبرع للمؤسسات الخيرية على سبيل المثال. وهناك فئة من الناس تشعر بارتياح نفسي عندما تعطي الفقراء والمحتاجين، ربما من باب التكفير عن ذنوبها. وأياً كان الأمر، فالإنسان الذي يعطي مثلما يأخذ، يفيد المجتمع. لكن الشخص المعادي للمجتمع من أمثال قابيل لا يأبه للمجتمع.

نلخص فيما يلي آراء المحلل النفسي:

- ينمو ويترسخ سلوك معين عندما يؤدي هذا السلوك إلى تحقيق رغباتنا، ومن هذه الرغبات: حب السلطة أو الثروة والجاه أو نيل رضا المجتمع.
- يمكن لقابيل أن يؤذي الآخرين إذا كان ذلك يخدم طموحاته، لأنه بطبيعته لا يأبه لآراء المجتمع.
- يتصرف قابيل على النحو الذي يتصرف به، لأن ذلك يؤدي النتائج التي يتوخاها.
- يمكن لطبيعة العمل أن تنمي وترسخ في الفرد سلوكاً غير محمود.

فالبائع مثلاً: تحتم عليه طبيعة عمله أن يقنع الآخرين بالشراء حتى لو اضطر أحياناً إلى اتباع سبل غير أخلاقية (حسب تعريف الآخرين لعبارة «غير أخلاقية»).

- بالرغم من أننا نعيش في زمن صارت الإدارة فيه تمثل نحو الترغيب بدل الترهيب، إلا أن المنافسة ستبقى دائماً وأبداً. والمنافسة بحد ذاتها شيء جيد إذا اقترنت بالأعمال الخيرة.

رأي عالم نفس آخر

يخيل لي أحياناً بأن الأطباء والمحامين والأطباء النفسيين أكثر عرضة لأذى قابيل من غيرهم. لأن هؤلاء يميلون بحكم عملهم إلى قبول ما يعرض عليهم من مشكلات. ولكني أرى بأن تجنب التعامل مع شخص رديء للغاية له ما يبرره. لأن قابيل في أسوأ حالاته لا يمكن علاجه.

إننا كأخصائيين مدعووين دوماً للتدخل لتقديم العون والمساعدة في الأزمات التي تواجه الفرد. وأغلب من يمارسون هذه المهنة على استعداد لمساعدة أي شخص يدخل عيادتهم، حتى وإن كان هذا الشخص سيئ النية. وأذكر أن مريضاً جاء يطلب العلاج، ودار بيننا الحوار التالي:

ـ من بعثك إليّ؟

أرسلني الدكتور «سين».

ـ ما هي مشكلتك؟

لقد فُصلت من وظيفتي.

ـ وماذا كانت وظيفتك؟

معلم في مدرسة.

ـ لماذا فُصلت؟

لأني تحرشت ببعض التلامذة.

لقد تبين لي بأن هذا الرجل لم يلجأ إليّ لأنه كان يشعر بالذنب، أو لأنه يريد علاجاً لمشكلته، بل لأنه كان يريد مني أن أذكر في تقريري بأن سلوكه مجرد عاهة، وذلك كي يتسنى له مقاضاة إدارة المدرسة والمطالبة بتعويض مالي. صفوة القول أن هذا الرجل لم يكن ينشد المعالجة؛ كان يريد تعويضاً مالياً. لذلك رفضت التعامل معه وطلبت منه مغادرة الغرفة.

قد يبذل الطبيب أقصى جهده في معالجة مريض، ولكن ذلك لا يمنع المريض السيء النية من مقاضاة الطبيب. وقد يجهل الطبيب أسباب ذلك. يجب أن نتذكر بأن من واجب الطبيب أن يعالج الفرد الذي يلجأ إليه حتى وإن كان هذا الفرد من أمثال قابيل، الأمر الذي قد يسبب الكثير من المتاعب للطبيب، وربما يدمر مستقبله.

يقول الكاتب سكوت بيك في كتابه The Road Less Traveled بأن أي طبيب معالج Therapist يجب أن لا يختلي بشخص شرير لأنه قد يحصل ما لا تحمد عقباه.

تتحدث أليس ميلر في كتابها For Your Own Good عن الشر وعن هتلر. وتقول في هذا الصدد بأن فلسفة تربية الأطفال في ألمانيا دفعت بالعديد من الناس لتقبل النازية. ولو نظرنا اليوم إلى الأفلام التي تصور هتلر، لبدا لنا هذا الرجل سخيفاً، لكنه لم يبدو كذلك للألمان في حينها. ولا عجب فقد كان آباؤهم مستبدين مثل هتلر. لذلك أصبح بمثابة أبٍ لهم. بمعنى أن آباءهم كانوا صارمين بحيث لا يجرأ الابن على تحدي إرادة أبيه دون أن يعرض نفسه للعقاب. إن الخوف من العقاب يجعل الفرد يشعر بالضعف والاستكانة. وللتكيّف مع هذه المشاعر يجنح الفرد للبحث عن ضحية أو كبش فداء كي يشعر بالقوة والسلطة في مواجهة الضحية الأضعف منه بطبيعة الحال.

إن الناس عموماً لا يعون مثل هذه الأحاسيس ولا يربطونها بطفولتهم. بمعنى أنهم لا يدركون بأن سلوكهم في سن الرشد يعكس ما مروا به من تجارب في طفولتهم. وأحد الأسباب التي تجعلهم يستخدمون العنف في

معاملة الآخرين يكمن في انعدام قدرتهم على محاكمة أنفسهم. والواقع أننا لا نستطيع مساعدة أولئك الذين فقدوا القدرة على مواجهة شرورهم.

وعلى صعيد آخر، يبرر قابيل سلوكه المشين بمقارنة نفسه بمن هو أسوأ منه بكثير، مستخدماً ذلك ذريعة للقول: أنا لست سيئاً؛ إن الرجل الآخر الذي ارتكب كذا وكذا هو السيئ. وعموماً نقوم نحن البشر بإسقاط الجانب السيئ لشخصيتنا على شخص أو أشخاص آخرين، وهكذا نحمّلهم تبعات الآثام التي نرتكبها.

أعتقد بأنه يوجد أفراد لا يمكن إسعافهم لأن الضرر الذي لحق بهم جعلهم بمنأى عن العلاج. في حالة كهذه لا أستطيع سوى قبول الأمر الواقع.

وفي حالات الأمراض العضوية المستعصية لا بد من الإقرار أحياناً بأن المريض سيموت لا محالة بالرغم من توفر العناية الطبية. في هذه الحالات يقول الطبيب لنفسه: «لقد فعلت كل ما بوسعي لمعالجة هذا المرض دون جدوى ولم يعد في استطاعتي إنقاذ هذا المريض».

لكن القضية تختلف عندما يتعلق الأمر بالطب النفسي. هنا تعتقد دوماً بأنه يمكننا أن نفعل شيئاً. ولكن يوجد أيضاً حالات مستعصية في هذا الميدان. وأعني تلك الحالات التي يعاني المريض فيها من مرض نفسي حاد خارج إطار ما هو مألوف. غير أن هذه الحالات لا تشكل سوى نسبة مئوية ضئيلة. وهذه الفئة من الناس منغمسة في ذاتها، بمعنى أنها لا تفكر إلا بنفسها، ولا تأبه إطلاقاً لما قد يترتب على ذلك من نتائج تمس الآخرين.

من الممكن أن تصادف في حياتك أناساً سيئي الطبع ورعناء، ولكنهم لن يتعرضوا لك بالأذى. فهؤلاء لديهم مشكلاتهم وقد يتسببون في إثارة المتاعب أحياناً، ولكنهم بالتأكيد لن يدمروا حياتك. أما الحالات الأخرى المستعصية (قابيل في أسوأ حالاته)، فهؤلاء يتحينون الفرص للإيقاع بالآخرين.

لا يوجد طريقة بسيطة لكشف النقاب عن قابيل وأمثاله. فالناس

يكتشفون قابيل على حقيقته بعد تعرضهم للأذى على يديه. ومن المؤسف أن التجربة تشبه المعلم السيئ الذي يعاقب طلابه قبل إعطاء الدرس، كما قال أحد الحكماء.

إن قابيل في أسوأ حالاته يتصرف بدافع الثأر. بمعنى أنه يعامل الآخرين بنفس القسوة التي عومل بها في زمن سابق. هذا هو المفتاح الوحيد لفهم شخصية هذه الفئة من الناس، ومما يؤيد ذلك أن الأشرار في جميع الحالات تعرضوا في مرحلة ما من حياتهم إلى الظلم أو الأذى، الأمر الذي خلف آثاراً سلبية على نفسيتهم؛ بيد أنهم يخفون هذا الجانب من حياتهم لأنهم غير واعين لهذه الآثار السلبية أصلاً.

وإذا كانوا قد تعرضوا خلال نشأتهم إلى الضرب أو الاعتداء الجنسي، فلا شك بأن سلوكهم في المستقبل سيتأثر بصورة أو بأخرى، وقد يمارسون نفس الأعمال المنكرة التي كانوا ضحية لها في طفولتهم عندما انتهكت حقوقهم ومشاعرهم. لذلك ليس مستغرباً أن ينتهكوا بدورهم حقوق الآخرين.

لنأخذ مثلاً الوالد الذي يبالغ في انتقاد ابنه بحيث يعجز الولد عن إرضاء أبيه مهما بذل من جهد. وعندما يكبر الابن نجده يتعامل مع الآخرين بنفس الأسلوب.

وهناك أمثلة على ذلك. فالمدير المكلف بإعداد التقرير السنوي لشركة يرغي ويزبد لأن صفحة واحدة فقط من التقرير لا تعجبه، ويجبر موظفيه على إعادة كتابة أو صياغة تلك الصفحة مرة تلو الأخرى إلى أن تنال رضاه.

ما هو مصدر هذا السلوك؟ من المحتمل أن والد هذا المدير كان يعامل إبنه بطريقة مماثلة. بمعنى أن الوالد كان كثير المطالب و«لا يعجبه العجب» كما يقول العامة.

إن العديد من مدربي كرة القدم الأميركية ينحون هذا المنحى في تعاملهم مع اللاعبين.

لكي تفهم شخصاً ما، لا بد من العودة إلى طفولته ودراسة البيئة العائلية التي نشأ فيها وترعرع.

كنت فيما مضى أعرف مديراً لأحد المصحات النفسية، وكان المدير المذكور عالم نفس سريري Clinical Psychologist وكان أحد كتاب المحكمة قد طلب من هذا المدير أن تغطي خدمات المصح المساجين الذين يقضون عقوبتهم في السجن المحلي. لكن المدير رفض قائلاً:

«إن ذلك ليس جزءاً من واجباتنا، ولا علاقة لنا بجهاز الأمن الجنائي».

وهنا سأله كاتب المحكمة: «أليس لديكم أطباء نفسيون؟».

«نعم، لدينا أطباء ولكن واجبهم يقضي بمعالجة المرضى داخل المصح، وليسوا على استعداد للذهاب إلى السجن». لكن كاتب المحكمة لفت انتباهه إلى أن سلفه كان يؤدي هذه الخدمات.

وبعد أن استفحل الخلاف وتدخل عدد من القضاة، وافق المدير على الاجتماع بالقضاة. وقد حضرت الاجتماع كمراقب، حيث تبين لي بأن المدير مصر على التمسك بموقفه.

وبعد أن أصغيت للنقاش الذي دار بين الطرفين سألت المدير:

«هل كان والدك طبيباً؟» فأجاب: نعم

«وكم كان عمرك عندما توفي؟».

«اثنتا عشرة سنة».

عندئذ، انفجر باكياً وانتهى الاجتماع.

لقد كان من الممكن أن يتمسك المدير بموقفه وأن يدوم الخلاف لستة أشهر أخرى أو سنة، لماذا؟ لأن هذا الرجل افتقد رعاية والده وعطفه واعتبر بأن والده هجره أو أهمله. وهاهو الآن يريد أن يهمل معالجة أولئك الذين يحتاجون إلى رعايته.

إني أعتقد بأننا نسعى باستمرار لتجاهل الجذور الحقيقية للسلوك المشين، وهذه الجذور تبدأ من الأسرة. ذلك لأن التجارب الذي يتعرض لها

المرء في سنيه اليافعة تؤثر على سلوكه في المستقبل من حيث أنه يعامل الآخرين بالطريقة التي عومل بها. وفي اعتقادي أن خمسين بالمئة من الحالات مردها إلى استيعاب الناس لهذه الحقيقة. ولو فهم الناس أنفسهم ودوافعهم لاستطاعوا أن يخطوا خطوة كبيرة نحو تصحيح سلوكهم.

وأحياناً تجد شخصاً نبيهاً يستخدم ذكاءه كسلاح للحط من قدر الآخرين الذين ينعتهم بالغباء والجهل. وهذا في الواقع أسلوبه في الثأر لجراح نفسية تعرض لها في الماضي. لكن هذه الجراح لم ولن تندمل لأن الشخص ينكرها ويتجاهلها، ومن ثم يستفحل خطرها على سلوك هذا الشخص.

وإذا شعر المرء في صباه بأنه لا رأي ولا حول له، فمن الطبيعي أن لا يريد لهذا الوضع أن يتكرر. لذلك تجده يطمح إلى التسلط والسيطرة على الآخرين، شأنه في ذلك شأن قابيل. بمعنى أنه يختزن في داخله (internalize) معالم هذا الشخص الذي أساء إليه في الماضي أو ينتحل شخصيته - إن صح التعبير - أي أنه ينتحل شخصية المعتدي وليس شخصية الضحية.

إني كثيراً ما أصادف في عيادتي نماذج لأناس يشكون من جرح كبريائهم، وهزء زملائهم، وسوء المعاملة التي يلقونها في مقر عملهم.

ومن الصعوبة بمكان معالجة مثل هذه الحالات التي تحصل في مكان العمل. وأذكر بأني عالجت بعض المرضى المثقفين والواعين. وقد حاول هؤلاء تطبيق ما قرؤوه وتعلموه في مكان عملهم، ولكن دون جدوى. والسبب في ذلك يعود إلى أن زملاءهم لا يريدون مواجهة مشكلاتهم. والمرء بطبيعة الحال لا يستطيع التواصل مع أناس يرفضون سماع ما تقوله. وهذا ليس بغريب، إذا لا يعقل أن تقول لزميل لك بأن عدم الإنسجام بينك وبينه يعود إلى أنك تتمثل له في صورة والده الذي كان على خلاف دائم معه.

نخلص إلى القول بأن الإلمام ببعض حقائق علم النفس لا يقدم أو يؤخر، لكنه على الأقل ييسر لك فهم بعض جوانب سلوكك ويجنبك «الثأر» من الشخص الآخر.

إن الثأر لا يفيد في إشباع رغبة دفينة، فالثأر (الثأر من المجتمع) بالمفهوم النفسي(السيكولوجي) لا يتوقف عند حد. يكفي أن تنظر إلى المجرم الذي يقتل مرة واثنتين وثلاث وربما أكثر.

وحتى إذا تكشفت لك الدوافع الكامنة وراء السلوك السيئ لشخص ما (رئيسك مثلاً)، فلا تظنن أنه بإمكانك «معالجته». والواقع أنك لا تستطيع مصارحة رجل سيئ الطباع والتحدث معه عن المشكلات التي يعاني منها، فقد تسبب لنفسك متاعب إضافية في المؤسسة التي تعمل فيها.

إني شخصياً أفضل الابتعاد عن الشخص السيئ الطباع. لكن ذلك لا يتسنى بالطبع للعديد من الناس بحكم عملهم والتزاماتهم.

إنها لحقيقة مزعجة. والشيء الوحيد الإيجابي في هذا الصدد هو أَنك إذا حللّت وفهمت ما يجري، فباستطاعتك عندئذ تجنب إيذاء نفسك. وعلى الأقل يمكنك القول: «هذه مشكلته وليست مشكلتي». وإذا لم توفق في حل المشكلة أو التعايش معها، فليس أمامك إلا التفكير بخيارات أخرى ـ إذا كان ثمة خيارات أخرى، كأن تستقيل من عملك مثلاً إذا كان هذا السبيل الوحيد لتجنب الاحتكاك بـ «قابيل».

ثمة وسيلة وحيدة للفرد الذي يريد أن يغيّر ما بنفسه، وهي أن يواجه صراحة ما ألم به وأن يرفض أن يكون جزاراً أو ضحية. هذا هو الخيار الصائب وهو أيضاً الخيار الأخلاقي. إن المزاج الشخصي للفرد يلعب دوراً هاماً في اختيار الطريق الصحيح. فالشخص الذي يفتقر بطبيعته إلى الجرأة سيبقى سجين الخوف، وبالتالي سيبقى ضحية طيلة حياته.

إن كل من تعرّض إلى أزمة نفسية في صباه سيتحول في نهاية المطاف إلى جاني أو مجنياً عليه. إن من شأن أية أزمة نفسية أن تعيق النمو الطبيعي والصحي للطفل وتحرمه من احتياجاته العاطفية.

ثمة جانب عاطفي للحياة خارج إطار البيت والمدرسة. وهذا الجانب لا

يحظى بالعناية الكافية. لكن أشباه قابيل واعون لهذا الجانب، ويعرفون كيف يسخرون علم النفس للتحكم بالآخرين.

خلاصة آراء هذا العالم النفسي

- يتأثر سلوك الشخص بالتجارب التي مر بها في صغره. ومن هذا المنطلق، فإن قابيل هو من الأشخاص الذين تعرضوا لسوء المعاملة في صغرهم، وسيسيئون معاملة غيرهم فيما بعد.
- إذا عانى قابيل من القهر والاضطهاد في طفولته، فسيعوض عن ذلك بالرغبة في السيطرة فيما بعد. وإذا كان والده كثير المطالب، فسيصبح هو كذلك عندما يبلغ سن الرشد.
- إن التجارب التي يمر بها الفرد خلال نشأته تترك بصماتها في وقت لاحق على سلوكه وتصرفاته. وتبدأ المشكلة عندما لا يتقبل الفرد هذه الحقيقة، وبالتالي يصبح العلاج مستحيلاً.
- يلجأ قابيل إلى إيذاء مشاعر الآخرين لبسط سيطرته. وهذه المشكلة يصعب حلها عندما تحصل داخل مكتب أو مؤسسة. الحل الوحيد في أغلب الأحيان هو مجرد تجنب الاحتكاك بالشخص المعني.
- ثمة أمراض عضوية (غير نفسية) غير قابلة للشفاءِ، وهذا أمر نتقبله بلا جدال، بيد أننا نصر على إمكانية علاج الاضطرابات النفسية والعاطفية لقابيل. لكن قابيل لا يمكن علاجه لأنه لا رغبة له في العلاج.

بالرغم من أن هؤلاء الاخصائيين الثلاثة ينظرون إلى شخصية قابيل من وجهات نظر مختلفة، إلا أنهم يتفقون على بعض الحقائق الأساسية.

أولاً: يمثل قابيل حالة شاذة. في حين أن معظم الناس العاديين (أشباه هابيل) يتصرفون بفعل دوافع إنسانية تتعدى الدوافع المادية المحضة.

ثانياً: قابيل على استعداد لإيذاء الآخرين إذا كان ذلك يخدم مصلحته. ويطمح دوماً إلى الفوز مهما كلف الأمر. كما أنه لا يقيم وزناً لمشاعر الآخرين تجاهه.

ثالثاً: قابيل يتقن تنفيذ خططه، ويبقى هابيل عرضة لأذى قابيل.

رابعاً: من الصعب جداً تغيير سلوك قابيل أو إصلاحه دون أن تعرض نفسك للأذى.

وهذا بإيجاز ما نسعى للفت انتباهك إليه منذ البداية.

obeikandl.com